

عبادة جبر الخواطر والمواساة .. كيف هذة الأخلاق الإسلامية ؟



الأربعاء 15 مايو 2024 10:06 م

عَقَدَ اللهُ سبحانه عَقْدَ الأخوة بين المؤمنين، وجعلهم بنعمته إخوانًا، وكتب عليهم عبادات ظاهرة وأخرى خفية لا يدركها حَقًّا إلا صاحب القلب الثَّقِي، ومنها المواساة وجبر الخواطر التي هي من أعظم أسباب الألفة والمحبة بين المؤمنين، وهو أدب إسلامي رفيع، وخلق عظيم لا يتخلق به إلا أصحاب النفوس النبيلة.

وهي عبادة لا تقتصر على المال فحسب، بل يكفي أن تتحقق بانتسامة، أو مسحة على رأس نبيم، أو إماطة أذى، أو تواضع مع الغير، أو رفع حرج عن الناس، أو كلمة طيبة تجبر نفوسًا كُسرت، وقلوبًا فطرت، وأجسامًا أرهقت، فما أجمل هذه العبادة وما أعظم أثرها، لذا يقول الإمام سفيان الثوري: "ما رأيت عبادة يتقرب بها العبد إلى ربه مثل جبر خاطر أخيه المسلم".

مفهوم المواساة وجبر الخواطر

المواساة وجبر الخواطر تأتي بمعنى الإحسان إلى الآخر أو الغير، أو تعامل مع الآخرين كما تحب أن يعاملوك. وقد جاءت في المعاجم بمعانٍ مختلفة، ومنها: جبر بخاطره أي أجاب طلبه، وعزاه وواساه في مصيبة حلت به، وأزال انكساره وأرضاه، ومن عَادِيَهُ أَنْ يَجْتَرَّ حَوَاطِرَ النَّاسِ: أَنْ يُسَلِّطَهُمْ وَيُعَزِّبَهُمْ وَيُرْضِيَهُمْ.

وهي صفة إنسانية وخلق ديني عظيم من يحملها في قلبه دل ذلك على سلامة نفسه وفطرته ونقاء روحه وإيمانه بربه، فلا يُمكن أن يصدر من صاحب النفس الطيبة والأخلاق الحسنة كلمة أو فعل يُوقِعُ الحزن في قلب شخص آخر .

المواساة وجبر الخواطر في الإسلام

خلق الله البشر للتعاون والتكاتف، وحث جميع الرسالات السماوية على اتخاذ الإحسان كأحد مبادئ العلاقة الطيبة بين الناس، وقد عظم الدين الإسلامي العمل بمبدأ المواساة وجبر الخواطر لما له من أثر عظيم على توثيق روابط الصلة بين الناس.

ويهدف الإسلام من جبر الخواطر إلى تخفيف الهم والحزن عن البائس، وبعث الطمأنينة في قلب كل مدعور. ولعظيم أثره عند الله- سبحانه وتعالى- أن عاتب نبيه الكريم على من سأله فأعرض عنه في قصة عبد الله بن أم مكتوم، فقال تعالى: {عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّه بُرِّئَ * أَوْ يَدَّكُرُ فَتَنْفَعَهُ الْدَّكْرَى * أَمَا مِنْ اسْتَعْجَلِي * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْكَبِي} {عبس: 1-7}.

بل أمره في موضوع آخر بجبر خواطر اليتيم والسائل فقال تعالى: {فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ} [الصحى: 9-10].

كما أمر الله بجبر الخواطر لكثير من الفئات التي جمعها في قوله سبحانه: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْغَنَبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ} [النساء: 36].

وهو المعنى الذي أكد عليه النبي- صلى الله عليه وسلم- بقوله: "من نَسَسَ عن مؤمن كُرْبَةً مِن كُرْبِ الدُّنْيَا، نَسَسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِن كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ بَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ، بَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَحِيهِ" (صحيح مسلم).

وهو الخلق الذي سطر حقيقته بمداد من نور فيما رواه عبد الله بن عمر- رضي الله عنهما- عن النبي- صلى الله عليه وسلم-: "أحبُّ الناس إلى الله أنفقَهُم لِلنَّاسِ، وأحبُّ الأعمال إلى الله عزَّ وجلَّ شُرُورُ يُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ، أَوْ يَكْتُمُ عَنْهُ كُرْبَةً، أَوْ يَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا، أَوْ تَطْرُقُ عَنْهُ جُوعًا، وَلَأَنْ أَقْنِيَنِي مع أَح لي في حَاجَةٍ أَحْبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ في هذا المسجد، يعني مسجد المدينة شهرًا، وَمَنْ كَفَّ عَصْبَةَ سِتْرِ اللَّهِ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ كَطَمَ عَيْطَهُ، وَلَوْ شَاءَ أَنْ يَمْضِيَهُ أَمْضَاهُ مَلَأَ اللَّهُ قَلْبَهُ رِجَاءَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ مَسَى مع أَحِيهِ في حَاجَةٍ حَتَّى تَهَيَّأَ لَهُ أَنْتَبَ اللَّهُ قَدَمَهُ يَوْمَ تَرُؤُلُ الْأَقْدَامِ" (السلسلة الصحيحة) .

النبي وجبر الخواطر

امتثلت سيرة النبي الكريم بالكثير من مواقف المواساة وجبر الخواطر حتى إنه كيشر احتاج لجبر الخواطر في بعض المواقف، وبخاصة حينما نزل عليه جبريل- عليه السلام- في غار حراء فخاف ورَجَعَ بِهَا تَرْجُفٌ تَوَادِرُهُ، حَتَّى دَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ، فَقَالَ: رَمَّلُونِي رَمْلُونِي، فَرَمَّلُوهُ حَتَّى دَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فَقَالَ: يا خَدِيجَةُ، ما لي؟ وَأَحْتَبَرَهَا الْخَبَرَ، وَقَالَ: فِدَا حَنْبِيثٍ عَلَى نَفْسِي، فَقَالَتْ لَهُ: كَلَّا، أَتَيْتُ، قَوْلَالِهِ لَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا؛ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّجْمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَقْرِي الْمَهِيفَ، وَتُعِينُ عَلَى تَوَائِبِ الْحَقِّ" (صحيح البخاري).

وعندما جاء فقراء المدينة مكسوري خاطر وقالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ذَهَبَ أَهْلُ الدُّنُورِ بِالْأَجُورِ، يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا تَصُومُ، وَتَصَدَّقُونَ بِمُؤَالِهِمْ (صحيح مسلم) فجير الرسول بخاطرهم وأرشدهم إلى طرق للمنافسة في كسب الحسنات سواء بالتسبيح أو التهليل أو الأمر بالمعروف.

ويُروى أن النبي- صلى الله عليه وسلم- قابل جابر بن عبد الله فقال: "يا جابر ما لي أراك منكسبًا قلت يا رسول الله استشهد أبي وترك عليي دينًا وعيالًا، فقال: ألا أبشرك بما لقي الله به أباك؟ إن الله لم يكلم أحدًا من خلقه قط إلا من وراء حجاب، وإن الله أحيا أباك فكلقه كفاخًا وقال: يا عبي نعم علي ما شئت أعطيك، قال: تردني إلى الدنيا فأقتل فيك، فقال: تبارك وتعالى: لا، إني أفسمت بيمينهم إني لا أيرجعون، يعني الدنيا" (صحيح الترمذي).

وهذا عبد الله بن أبي بن سلول، كان من المنافقين وكان من أشد الناس إبداءً لرسول الله- صلى الله عليه وسلم-. وكان ابنه من المؤمنين الصادقين المحبين لله ولرسوله وكان يارًا بأبيه فأراد رسول الله أن يجبر بخاطر عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول، فأعطاه قميصه واستغفر له، حتى أنزل الله سبحانه: (وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّا تَأْتِي بَدَأًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ) [التوبة: 84].

وهذه الأنصار في غزوة حنين وبعد معركة شديدة يصدق النبي على قريش فتأثر الأنصار، فيسارع النبي بجبر خواطرهم ويقول لهم: "فوالذي نفس محمد بيده، لو لا الهجزة لكنت أمتراً من الأنصار، ولو سلك الناس بيعةً وسلكت الأنصار بيعةً، لسلكت الأنصار، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء الأبناء الأنصار، فبكى القوم".

جبر الخواطر ميزان حساس

ربما يفهم الكثيرون أن المواساة وجبر الخواطر حالة من التعاطف معهم ويرفضونه، لذلك يجب أن يراعى ذلك.

ومظاهر جبر الخواطر تأتي بأشكال عدة ربما- مثلاً- في الشراء من البائع الصغير في الطريق وعدم كسر خاطره حين يعرض علينا بضاعته البسيطة، فعلينا التيسر له، ويكون هذا جيداً، لكن النظرة قد تشعره بألم في عزة نفسه لذلك يجب أن نكون مقتنعين من داخلنا أننا نعمل شيئاً بصفة إنسانية كاملة لا تأتي من خلفها أسباب مختلفة لفعل هذا.

وأهم ما في الأمر ألا تتكلف جبر الخواطر وأن يكون عن رغبة ومحبة وطاعة لله لا على سبيل مهمة تنفيذية أو رياء، لأن التكلف في التعاملات المتعلقة بالعواطف تكون نتاجه عكسية(4).

كيف ننشر ثقافة جبر الخواطر؟

تطبيق الخاطر لا يحتاج إلى كثير جهد ولا كبير طاقة، ونشر ثقافة المواساة وجبر الخواطر لا يحتاج إلى عناء كبير، بل يحتاج إلى قلب إنسان، وهو ما يجعلنا نغرس في أنفسنا والآخرين، بل والأطفال سبل مواساة الآخرين، ويكون ذلك من خلال:

تعدد النيات واحتساب الأمر لله والأخذ بالوسائل التي شرعها الإسلام في حفظ ماء وجه الآخرين. يقول الله تعالى: (يَخْسِئُهُمُ الْجَاهِلُ أَعْيَاءً مِّنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيئَاتِهِمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَاقًا) [البقرة: 273].

أهمية معرفة فتح الحديث مع الطرف الآخر الحزين، سواء كنت تعرفه أو لا، فيجب تعلم طريقة الدخول إليه أولاً.

لا تتبع عملية المواساة مباشرة، حتى لا تزيد من ألم الإنسان الحزين أو الفقير.

لا نخبر الشخص بأنه سبب المشكلة، فإن ذلك قد يزيد منها أو يعقدها وينجرح قلبه وتنكسر نفسه.

ولا تغفل الحديث الإيجابي والإيماني في كلماتنا مما يربطه بالله سبحانه وتعالى وأن كل شيء مرده إلى الله.

علينا ألا نتردد في مساعدة الغير قدر المستطاع دون أن نشعره بالأذى أو الحرج.

يجب أن ندرك أن من سار بين الناس جابراً للخواطر فقد أنقذه الله من جوف المخاطر

ومن الأمور التي يجب على المسلم أن يتجنبها في مسألة جبر الخواطر:

الضحك والفكاهة أثناء حزن الشخص الذي أمامنا.

الاستهتار بالموقف المحزن الذي يواجهه الشخص أمامنا، فربما هذا الموقف كبير بالنسبة له.

الأسئلة الاستفزازية في هذا الوقت أو الكلمات المحرجة أو الألفاظ غير المناسبة

ما أوجتنا إلى المواساة وجبر الخواطر في هذا الزمان الذي زاد فيه انشغال الناس بل والأهل عن بعضهم البعض؛ وذلك ضروري حتى تلتئم الجروح، وتستقر القلوب،

لأن أصحاب القلوب المنكسرة كثيرون، نظراً لشدة الظلم الاجتماعي في هذا الزمان، وفساد ذم الناس واختلاف نواياهم